بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 04 ديسمبر 2017

أطـراف الغفـران في العهد القديـم

محمّد يوسف إدريس
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

أطراف الغفران في العهد القديم[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من الباب الثاني من كتاب: "الغفران في الأديان الكتابيّة"، تأليف: محمّد يوسف إدريس، منشورات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، ط1، 2015.

الملخّص:

الغفران في اليهوديَّة متّصل بمسألة الصراع من أجل إثبات الذات الإلهيَّة. فالغفران ليس عنوان حبّ للإنسان، بل هو إعلان عن ألوهيَّة الرَّبّ، وهو ما يكرّس العلاقة العموديَّة بين الإله والإنسان. لذلك سعى المؤلّف إلى رصد أهمّ تجليَّات الغفران في العهد القديم، وهذا ما أحوج إلى تخصيص الجزء الأوّل من هذا العمل لتحديد هويَّة الغافر، وهو ثلاثة أصناف: الغافر البشري والغافر الملاك والغافر الرَّبّ الإله. واستنتج المؤلّف أنَّ كلّ الغافرين يستمدّون قدرتهم على منح الغفران من مصدر واحد هو الرَّبّ. أمَّا الجزء الثاني من العمل فكان مداره على تحديد هويَّة المغفور له، وهو على صورتيْن: الأولى مرتبطة بالطور الذي تلا إقامة العهد وقبل الإنذار (ارتكاب الإنسان للآثام وللمعاصي)، والثانية متّصلة بالمدى الزمني الفاصل بين الإنذار وتحقّق الغفران أو إنزال العقاب. ويخضع المغفور له لتراتبيَّة أو لتفاضل (هناك الغفران المطلق والغفران الجزئي)، فضلاً عن وجود أصناف من المغفور له (المغفور له الأجنبيّ والمغفور له اليهوديّ والمغفور له الإنسان في المطلق). والحاصل من ذلك كلّه، حسب المؤلّف، هو وضوح صورة المغفور له في العهد القديم: المغفور له مرتكب للخطيئة، وهو يعبّر عن شخصيَّة سلبيَّة تكون في تبعيَّة وخضوع للغافر. أمَّا الجزء الثالث والأخير من هذا العمل، فقد درس فيه المؤلّف طرفاً مهمَّاً في عمليَّة الغفران وهو الشافع. لذلك تمَّ النظر في دلالة الشفاعة وما تقتضيه من وجود وساطة ينهض بها الشافع، وهو يقيم البرهان على المنزلة الرَّفيعة التي يحظى بها الشافع لدى الرَّبّ واهب الغفران.

تمهيد

قامت علاقة الإنسان بالرَّبّ الإله في العهد القديم على الخوف والارتياب، ورغبة كلّ طرف في إلغاء الآخر، فالرَّبّ الإله في سبيل إثبات ألوهيَّته أوقع الشرَّ بالإنسان الذي بدا كياناً مريداً وقادراً على محاكاة أفعال الرَّبّ الإله والتّماهي معه، وهو كيان راغب في المواجهة لثقته في قدراته، فهو يعصي الرَّبّ الإله، ويتمرَّد عليه، ويعبد الأوثان دونه، ولا يتردَّد في محاجَّة الرّبّ الإله، ولا يُعَدُّ ذلك خطيئة.

إنَّ الخطيئة لا تمثّل مجالاً من مجالات العقيدة اليهوديَّة، ولا تمثّل مركزاً من مراكز اهتمام العهد القديم الذي اعتنى برصد ملامح تاريخ شعب الرَّبّ، فنكبات الشّعب لم تكن عقاباً لخطيئة آدم، وإنَّما كانت العقاب الإلهي النّاتج عن مواجهة الإنسان للإله، فلا صلة لخطيئة الإنسان اليهودي بخطيئة آدم، ولا يوجد مجال للحديث عن الخطيئة التي تُوَرَّثُ.[1] وفي ما يتّصل بهذه المسألة نميّز بين الخطيئة التي تورث والعقاب الذي يناله الأبناء بسبب أخطاء الآباء، فالخطيئة والتّمرد جوهر الإنسان. أمَّا العقاب فهو عقاب تاريخي آني أكثر من كونه عقاباً أزليَّاً.

وقد أثّر تصوُّر العهد القديم للخلق والخطيئة ولعلاقة أطراف الوجود (الرَّبّ الإله/ الإنسان) في ماهيَّة الوجود البشري داخل التّاريخ، وعلى سبل المغفرة التي تعني لدى مؤلّفي **قاموس الكتاب المقدَّس**: «محو المعاصي والآثام وستر وجه الله عنها وعدم تذكّرها».[2] أمَّا مؤلّفو **معجم اللّاهوت الكتابي**، فالغفران عندهم «فعّالٌ لدرجة أنَّ الله لا يعود بعد ينظر إلى الخطيئة».[3]

إنَّ تصوُّر مؤلّفي **قاموس الكتاب المقدَّس** ومؤلّفي **معجم اللّاهوت الكتابي**، على وجاهته، يحتاج إلى المراجعة والتّدقيق، فالغفران في العهد القديم لم يكن دائماً عدم تذكّر الخطيئة، بل إنَّ الرَّبّ في أكثر من موضع يعمد إلى تذكير الإنسان بخطيئته[4]، وذلك في بهجة وسرور.

لا يخرج الغفران في اليهوديَّة عن مجال الصّراع من أجل إثبات الذّات، ففكرة البقاء تحكّمت في صراع الرَّبّ الإله/ الإنسان في مختلف مراحل تاريخ بني إسرائيل في علاقتهم ببقيَّة الأمم، فالرَّبّ الإله عندما يعلن الغفران لا يعلن عن حبّه للإنسان المغفور له بقدر ما يعلن عن ألوهيَّته، وهي ألوهيَّة لا تتحقّق إلّا بإقرار علاقة عموديَّة بينه وبين الإنسان[5]، يحتلّ فيها ـ الرّبّ الإله ـ قمَّة الهرم. ونلحظ أيضاً أنَّ الغفران في اليهوديَّة

1ـ ذُكرت الخطيئة في نصوص مُتأخّرة من العهد القديم (المزمور 5/51).

2ـ قاموس الكتاب المقدّس، سبق ذكره، ص 660.

3ـ معجم اتابي، ص 757.

4ـ حزقيال 63/16.

5- Derrida (Jacques): Foi et savoir, suivi de Le siècle et le pardon, op. cit., pp. 102-134.

يقوم على ضرب من ضروب الإذلال والإهانة، وفي ضوء هذه العلاقة العموديَّة بين الربّ الإله والإنسان[6] نقف على أمرين: **أوَّلهما** مستويات العلاقات التي تربط الأطراف المعنيَّة بالغفران، أمَّا الأمر **الثاني** فيتمثّل في أنَّ تبيّن شروط الغفران ممكن بالنّظر في ضروب الإذلال والإهانة وطبيعة الصّراع القائم بين الرَّبّ الإله والإنسان.

فما أهمُّ تجلّيات الغفران في العهد القديم؟ وما ماهيته؟ ومن الغافر؟ وما أهمّ أحواله وصفاته وملامحه وصوره؟ ومن المغفور له؟ وما أهمّ أحواله؟ وما الأطراف الأخرى المساهمة في الغفران؟

المبحث الأوَّل: الغافر

نجد في اللغة العبريَّة ثلاث كلمات دالّة على الغفران، وهي: «سَالاح» (Salah) و«نَاسَا» (Nasa)[3] و«كيفير» (Kippour)، على أنَّ بعض دارسي الديانة اليهوديَّة أشاروا إلى وجود اختلافات عديدة بين تلك الكلمات، من ذلك أنَّ «سالاح» يحيل على النّتيجة مع تأكيد البُعد الحميمي بين الغافر والمغفور له. أمَّا «ناسا» ـ رغم إحالته على النتيجة أيضاً ـ فيتميز ببيان موقف الغافر من المغفور له، في حين أنَّ كيفير الذي يُترجم في اللّغة العربية بـ«كَفَّرَ»، فهو إحالة على رغبة المغفور له في الحصول على الغفران.

تتّفق الكلمات الثلاث في إبراز العلاقة الرّابطة بين الغافر والمغفور له، فالأوَّل قمَّة الهرم والثّاني قاعدته، فتبدو العلاقة بينهما علاقة عموديَّة، وتعود أسباب هذه العلاقة إلى تباين في تحديد هويَّة كلّ طرف إذ يمثّل الغافر الطّرف الرّئيس في عملية الغفران، فهو قطب الرّحى الذي تنشدّ إليه بقية الأطراف.

إنَّ المواضع المتعلّقة بمبحث الغفران في العهد القديم تبيّن أنَّ الغافر ثلاثة أصناف: **الأوّل** بشري، و**الثّاني** ملائكي، و**الثّالث** ربَّاني.

أ ـ الغافر البشري

بعد تبيّن المواضع التي حضر فيها الغافر البشري، اتّضح لنا أنَّ هذا الغافر هو عبراني دائماً،[7] ففي التّكوين 50/17 نُسب الغفران إلى يوسف الذي ناشده أبوه عبر وصية أنْ يغفر لإخوته إساءاتهم.

6ـ ذهب العدوي مصطفى في مقاله "الخطيئة الأولى والتّحليل النّفسي"، سبق ذكره، إلى اعتبار أوامر الرّبّ الإله لآدم في جنّة عدن "تمثيلاً رمزياً للأب الجبّار المُستبدّ العارف بكلّ شيء والمُسيطر على كلّ شيء ضدّ ابنه الغرّ الضّعيف"، ص 104.

7ـ نشير في ما يتصل بهذه المسألة إلى أنَّ نبوخذ نصر ـ وهو ليس بعبراني ـ عرض غفرانه على ميشخ وعبد نغو وبشدرخ شريطة السجود لتمثال الذّهب الذي يسجد له، (دانيال 3/13-15)، على أنّ هذا العرض لا يُعدّ غفراناً بالمعنى الدّقيق، لأنّ نبوخذ نصر لم يستطع تحقيق غفرانه أو إنزال عقابه.

ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى أنَّ يوسف بن يعقوب لم يكن الغافر الوحيد في العهد القديم، إذ سعت أبيجايل إلى لقاء داود كي يغفر لزوجها نابال إساءاته الكثيرة، وذلك بعد أن قدَّمت له هديَّة هي (الكفّارة)[8]، ويغفر داود لنابال إساءاته حقناً للدّماء، وقد غفر من قبل لشمعي بن جيرا البنياميني ولشاول.[9]

لقد بيّنت مواضع عديدة من العهد القديم أنَّ الغافر لم يغفر خطايا اليهود فقط، وإنَّما غفر أيضاً خطايا غيرهم من الأمم، ففي الخروج 10/17 طلب فرعون من موسى وهارون أنْ يغفرا له خطاياه.

وما يلفت الانتباه في هذه الحادثة أنَّ موسى وهارون لم يبديا اعتراضاً أو امتعاضاً من طلب فرعون، وفي ذلك دلالة على أنَّ الغفران فعل يأتيه البشر أيضاً، وهو متاح لغير اليهود، فقد بارك الرَّبّ غفران موسى وهارون آثام فرعون وخطاياه، إذ أرسل الرّياح كي تُلقي بالجراد في البحر الأحمر.[10] ونجد أيضاً إلى جانب ذلك حادثة أخرى منح فيها أخاب غفرانه لبنهدد.[11] وهو غفران أثار غضب الرَّبّ الذي أرسل النّبي صموئيل لإنذار أخاب وإدانته وإعلامه بقرار الرَّبّ المُتمثّل في قتله أخاب بدلاً من بنهدد، وقد أتى شاول[12] فعل أخاب حيث غفر لأجاج. وقد قابل الرَّبّ الإله هذا الغفران بالغضب والرَّفض، إذ أرسل صموئيل إلى شاول لإعلامه بقراره (الرَّبّ) المُتمثّل في معاقبته (شاول) بدلاً من أجاج. ويستبدّ الخوف بشاول، فيطلب من صموئيل الغفران محرّضاً إيَّاه على التّوسط له عند الرَّبّ الإله، ولكنَّ صموئيل يرفض منح شاول الغفران، ذلك أنَّ أوامر الرَّبّ الإله صدرت ولا رجعة فيها.

اتّخذ الرَّبّ الإله موقفين متضاربين من الغفران البشري، فهو لا يبدي حراكاً أو اعتراضاً - وفي ذلك موافقة ضمنيَّة - إذا كان المُنتفع بالغفران أحد أفراد شعب بني إسرائيل، أمَّا إذا تعلّق الأمر بأحد أفراد الأمم الأخرى، فإنَّ الرّبّ يعبّر عن رفضه لهذا الغفران، لا سيَّما إذا كان هذا الغفران (العفو) في حرب دعا إليها الرَّبّ، وفيها تمَّت مخالفة أوامره.[13]

ما يشدّ الانتباه في هذه المواقف مباركة الرَّبّ غفران موسى وهارون إثم فرعون، بيد أنَّ ذلك الغفران لم يتحقّق إلّا بعد ابتهال موسى وهارون إلى الرَّبّ، وهو في كلّ الحالات لا يُعدّ غفراناً بالمعنى الصّحيح (تأجيل العقاب)، فالرَّبّ أعلن لموسى منذ البداية أنَّ فرعون سيلقى حتفه بسبب كفره وغطرسته. وهو ما يعني أنَّ غفران موسى وهارون إساءات فرعون كان تحقيقاً لإرادة الرَّبّ ورغبته المُتمثّلة في إمهال فرعون، وهو ما يعني بالضرورة أنَّ الغفران البشري بصرف النّظر عن هوية الغافر، وعن مكانته (نبي، ملك...) ينتهي

8-صموئيل الأول 25/ 23-28.

9-صموئيل الأول 25/23-28، صموئيل الثاني 19/16-23.

10-الخروج 10/17-19.

11-ملوك الأول 20/31-34.

12-صموئيل الأول 15/9.

13-انظر ملوك الأول 20 وصموئيل الأول 15/10.

إلى الرَّبّ من خلال مباركته أو رفضه لهذا الغفران، فـ«الغفران [في التصوُّر اليهودي] صفة من صفات الله المقدَّسة ولا غفران إلّا به»[14]، فالرَّبّ مصدر الغفران[15]، وإليه يعود «إِنَّمَا لِلرَّبِّ إِلَهِنَا الرَّحْمَةُ وَالْمَغْفِرَةُ».[16]

إنَّ ما نخلص إليه من الغفران الذي قدَّمه يوسف لإخوته والغفران الذي قدَّمه داود لشمعي بن جيرا البنياميني أنَّهما غفرانان مؤقتان، إذ سبق ليوسف أنْ غفر لإخوته، وما كان يعقوب ليرجو من ابنه يوسف أنْ يغفر لإخوته إساءاتهم إلّا لكون يوسف قادراً على معاقبتهم بعد وفاة أبيه، وكذلك داود عندما كان يُحْتَضَرُ استدعى ابنه سليمان وحرَّضه على قتل شمعي الذي سبق أنْ أعطاه داود الغفران.

لقد اقتصر الغافر البشري في العهد القديم على شخصين هما: النّبي[17] والملك[18]، فغفران النّبي موسى تمَّ في زمن مبكّر لم تظهر فيه ملامح مملكة بني إسرائيل، وقد تمَّ في بلاد العبوديَّة، في حين اقتصر الغفران البشري على الملوك في المراحل اللّاحقة من تاريخ بني إسرائيل. ولا غرابة في ذلك، فالملوك في الفكر الدّيني اليهودي صدى الرَّبّ الإله في التّاريخ[19]، من ذلك أنَّ روح الله وجّهت شاول وداود، فالرَّبُّ الإله خاطب شاول قائلاً: «فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ فَتَتَنَبَّأُ مَعَهُمْ وَتَصِيرُ رَجُلاً آخَرَ. وَعِنْدَمَا تَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْعَلاَمَاتُ لَكَ، فَافْعَلْ مَا تَرَاهُ مُوَافِقاً، لأَنَّ الرَّبَّ مَعَكَ»[20]، بل إنَّ الملك شخصيَّة مقدَّسة، فهو «مَسِيحُ الرَّبِّ».[21]

الرَّبّ الإله بارك الملوك - على سبيل المثال داود - وهو يرعاهم ويحميهم ويتبنَّاهم[22]، فالغفران البشري في أسفار العهد القديم يستمدّ قيمته الرّئيسة من الرَّبّ من خلال قبوله أو رفضه الغفران، وقد بدا الغفران مؤقتاً أشبه ما يكون بالهدنة في الحرب، وهو غفران يتمتَّع به اليهودي وغيره في أحيان قليلة.

ب - الغافر الملاك[23]

يُعلم الرَّبّ الإله موسى أنَّه مرسل ملاكه ليحرس شعب بني إسرائيل في طريقهم إلى الأرض الموعودة، ويُحذِّرُه من مغبّة التّمرُّد وعصيان أوامر الملاك، فهو لا يغفر العصيان والتّمرّد قائلاً: «هَا أَنَا مُرْسِلٌ مَلاَكِي

14- قاموس الكتاب المقدَّس، سبق ذكره، ص 659.

15- المزمور 4/130.

16- دانيال 9/9.

17- وقعت بين الأنبياء والملوك في العهد القديم مواجهات عديدة انتهت بتدخّل الرّبّ الإله لفائدة النّبي، مثال ذلك ما دار بين الملك أخاب والنّبي إيليا.

18- نشير إلى أنّ أغلب الشّعوب السّابقة أو المزامنة للشّعب اليهودي كانت تعتبر الملك الإله أو الرّبّ، مثال ذلك فرعون، ولعلّ لهذا التّصوّر تأثيره الواضح في التّصوّر اليهودي لماهيّة الملك وعلاقته بالإله، من ذلك أنّ يهوه سُمّي بالملك بعد عصر الملوك (المزمور 2/47 والمزمور 93/1-2).

19- Le Talmud de Jérusalem, traduction par Moïse Schwab, G.P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1981, vol. 3, p. 89.

20- صموئيل الأول 10/6-7.

21- صموئيل الأول 9/26.

22- مثال ذلك أنّه تبنّى سليمان، انظر المزمور 89/20-26، صموئيل الثاني 7/14، المزمور 2/7.

23- اعتبرنا الملاك غافراً رغم أنّ الغفران قد نُسب إليه في موضع واحد (الخروج 23/20–21) في صيغة النّفي.

أَمَامَكَ لِيَحْرُسَكَ طَوَالَ الطَّرِيقِ وَيَقُودَكَ إِلَى الأَرْضِ التي أَعْدَدْتُهَا لَكَ فَآصْغِ إِلَيهِ وَآمْتَثِلْ لَهُ وَلاَ تَعْصِهِ لِأَنَّهُ لاَ يَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِكُمْ إِذْ أَنَّ آسْمِي فِيهِ».[24]

نُسب الملاك في الآيتين إلى الرَّب الإله، وهو أمر دفع البعض إلى الاعتقاد بـ«أنَّ عبارة ملاك الرَّبّ تشير إلى ظهور الرَّبّ نفسه»[25]، ولهذا التّصوُّر مبرّراته، إذ تبدو علاقة الرَّبّ بالملاك علاقة وطيدة من خلال استخدام المركّب الاسمي بالإضافة (ملاك الرَّبّ/ ملاكي)، وذلك في أكثر من موضع من العهد القديم، وقد ظهر ملاك الرَّب لهاجر عند عين ماء بعدما هربت من بيت سيدتها سارة (ساراي)، وهو الذي اعترض طريق بلعام، وأرشد العبد الذي كلّفه إبراهيم باختيار زوجة لإسحاق، وتجلّى للعاقر من بلدة صرعة، وخاطب موسى من نار العلّيقة، وهو الذي خاطب الشّعب بعد الخروج من مصر، وخاطب إبراهيم عندما أقدم على ذبح ابنه.[26]

صورة الملائكة في العهد القديم شديدة التّعقيد - لا سيَّما في مستوى تحديد علاقتها بالرّبّ - ففي التّكوين 18/24-26 قَدِمَ ثلاثة أشخاص على إبراهيم الذي أسرع لاستقبالهم والسّجود أمامهم، وقد كان الرَّبّ الإله أحد الثّلاثة أو هو الثّلاثة.[27]

شارك الرَّبّ الإله الملائكة صفاتهم، وهي صفات بشريَّة بالأساس (الأكل، المشي...) من جهة، ومن جهة أخرى اتصفت الملائكة بالقداسة، شأنها في ذلك شأن الرَّبّ الإله، وهو ما يتجلّى في سجود لوط أمام الملاكين[28]، وقد كشفت أفعالها (تدمير سدوم) عن قدرتها التي تضاهي قدرة الرَّبّ، و«يظهر أنَّ الرَّبّ نفسه كان واحداً منهم»[29]، من ذلك أنَّ هاجر دعت ملاك الرَّبّ لما ظهر لها قرب عين ماء في الطّريق المُؤدّية إلى شور، وبعد الحوار الذي دار بينهما قائلة: «أَنْتَ اللهُ الذي رَآنِي».[30]

ممَّا تقدّم نتبيّن ثلاثة مواقف من علاقة الرَّبّ بالملاك، نصوغها على النّحو الآتي:

- الموقف **الأوَّل**: أنْ يكون الرَّبّ واحداً من الملائكة.

24- الخروج 20/23-21.

25- قاموس الكتاب المقدّس، سبق ذكره، ص 920.

26- التكوين 7/16-13، 11/22، 7/24، الخروج 2/3، العدد 22/22، القضاة 1/2، 3/13.

27- ورد ت القصّة مفصّلة في التّوراة السّامرية (التكوين 1/18-33).

28- التكوين 1/19.

29- قاموس الكتاب المقدّس، سبق ذكره، ص 921، وراجع كذلك القمني (السّيد): الأسطورة والتّراث، دار سينا، ط 1، القاهرة مصر، 1992، ص 135.

30- التكوين 13/16.

- الموقف **الثّاني**: أنْ يكون الملاك كياناً مستقلاً عن الرَّبّ له علاقة وطيدة به.[31]

- الموقف **الثّالث**: أنْ يكون الرَّبّ والملائكة كياناً واحداً.[32]

إنَّ الموقف الأخير أكثرها وضوحاً في العهد القديم - لا سيَّما في النّصوص الأولى - إذ تبيّن لنا أنَّ ملاك الرَّبّ «لا يختلف عن الله نفسه الذي يتجلّى في هذه الدنيا تحت شكل مرئي»[33]، على أنَّ نصوصاً أخرى من العهد القديم - وهي نصوص متأخّرة نسبيًّا - تصرّ على فصل الرَّبّ عن ملائكته أو ملاكه، فلا وجود لملاك واحد، إذ تتعدَّد أسماء الملائكة التي يُوكل إليها الرَّبّ حفظ شعبه[34]، وقد ذهب هشام جعيط في تفسير هذا التّحوُّل من القول بالتّطابق التّام بين الرَّبّ وملائكته إلى القول بانفصال الرَّب عن ملائكته بقوله: «(يهوه) وملكه شيءٌ واحد، إنَّما أريد التّقدّم خطوة صغيرة في التّنزيه، إنْ صحَّت الكلمة، لكنّا نلحظ صيغة التّماهي بين يهوه وملكه».[35]

وأضاف هشام جعيط تفسيراً آخر لتطوُّر تصوُّرات العهد القديم لعلاقة الملاك بالرَّبّ من الإقرار بالتّماهي والتّطابق إلى القول بالانفصال الجزئي، إذ باتت الملائكة «ليست الله وإنَّما من الله».[36] ويُرجع هشام جعيط هذا التّطوُّر إلى تأثير الزّاردشتيَّة في المعتقدات اليهوديَّة، ولا سيَّما في مرحلة الأسر البابلي.

بيَّن هشام جعيط المُؤثّرات المُنشئة لهذا التّطوُّر (من التّماهي إلى الانفصال)، بيد أنَّه لم يحدّد الأسباب المباشرة لهذه الظّاهرة، فالتّنزيه لم يكن مشغلاً من مشاغل مدوّني العهد القديم، ويبدو أنَّ جعيط نظر إلى مسألة التّنزيه من منظور اللّاحق لليهوديَّة لا السّابق لها، فالربُّ الإله في العهد القديم، إذا ما قيس بوضعيَّات الآلهة الأخرى لدى الأمم السّابقة أو المُزامنة لبني إسرائيل، هو على درجة عالية من التّنزيه، وفي تقديرنا الأمر الرّئيس الذي به نفسّر ظاهرة تطوُّر العلاقة بين الملاك والرَّبّ من التّماهي إلى الانفصال له أسباب ثلاثة: يتمثّل **الأوَّل** في أنَّ العهد القديم قبل تدوينه مرَّ بمرحلة مشافهة تقدَّر بالقرون، وهو ما أثّر في النَّصّ المكتوب. أمَّا **الثاني** فيتجلّى في كون العهد القديم لم يقم بتدوينه مُؤَلِّفٌ واحد. في حين يتعلّق **الثالث** بالأسر البابلي، وقد أشار إلى ذلك هشام جعيط، ففي فترة الأسر البابلي تعرَّف اليهود على آلهة الرّافدين وعند عودتهم

31- صموئيل الثاني 16/24، وقد ذكر المسيري (عبد الوهّاب): موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة (الموسوعة الموجزة)، سبق ذكره، مج 2، ص 103 أنَّ "التّراث الدّيني اليهودي [أشار إلى الملائكة] باعتبارهم أبناء الإله".

32- أشار إلى ذلك ابن حزم الأندلسي الظّاهري (أبو محمّد علي) (ت- 456 هـ/1065م): الفِصل في الملل والأهواء والنّحل، تحقيق أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت لبنان، 1996 بقوله في ج 1، ص 156: "إنّه يخاطب أولئك الملائكة بخطاب الواحد".

33- معجم اللاهوت الكتابي، سبق ذكره، ص 761.

34- المزمور 11/91.

35- جعيط (هشام): في السّيرة النّبوية (ج 1) الوحي والقرآن والنّبوّة، دار الطّليعة، ط 1، بيروت، لبنان، 1999، ص 63.

36- المرجع نفسه، ص 64.

من الأسر نقلوا معهم آلهة الرّافدين والكنعانيين، و«مع اتجاههم نحو إلههم القومي يهوه وتفضيله دون غيره على بقيَّة الآلهة [...] حَوَّلوها [الآلهة الرافديَّة والفرعونيَّة والكنعانيَّة] إلى أتباع الإله القومي يهوه».[37]

غفران الملاك هو فعل إلهي من جهة مصدره، بما أنَّ هذا الملاك آلهة، أو من جهة كونه رسولاً صادراً أو مبعوثاً من الرَّبّ، فكلمة (ملاك/ ملاخي) في أصلها العبراني يراد بها الرَّسول أو المُبلّغ، فالغفران الملائكي أو العقاب الملائكي لموسى وشعب بني إسرائيل هو صادر عن الرَّبّ بصفة مباشرة أو غير مباشرة.

ج ـ الغافر الرَّبّ الإله

إنَّ الغفران البشري أو الغفران الملائكي (الفرضي) يبدوان قليلي الحضور في العهد القديم إذا ما قيسا بالغفران الرَّباني، إذ بيَّن **الكتاب المقدَّس** في مواضع عديدة أنَّ الغفران الصّادر من الرَّبّ مباشرة له أكثر من شكل، فهو تجاوز مطلق وإلغاء كلّي للعقاب، أو هو إسقاط لجزء من العقاب أو تأجيل أو غفران مسبوق بعقاب جزئي، إذ يتخلّى الرَّبّ عن فكرة العقاب بعد الشّروع فيها[38]، وفي أغلب الأحيان يكون الغفران تخفيضاً في العقوبة (مدّة العقاب أو نوع العقاب)، ويندر أن يتخلّى الرَّبّ عن فكرة العقاب تخلّياً كلّيًّا.

لقد منح الرَّبّ الإله بشفاعة إبراهيم الغفران لساكني سدوم، وإنْ كان الرَّبّ قَبِلَ شفاعة إبراهيم عن إرادة، فإنَّه في موضع آخر قبل شفاعة موسى اضطراراً، لكي لا يُقال عنه إنَّه أخلف وعوده وعجز عن الوفاء بعهوده، من ذلك قول موسى للرَّبّ الإله: «إِنْ أَهْلَكْتَ هَذَا الشَّعْبَ دُفْعَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ الأُمَمَ التي سَمِعَتْ بِخَبَرِكَ تَقُولُ إِنَّكَ قَدْ عَجَزْتَ عَنْ أَنْ تُدْخِلَ هَذَا الشَّعْبَ إِلَى الأَرْضِ التي وَعَدْتَهُمْ بِهَا، فَأَهْلَكْتَهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ».[39]

وفي الأصحاح الثّامن عشر من «سفر التّكوين» قبل الرَّبّ شفاعة إبراهيم في أهل سدوم، وذلك بعد حوار أشبه ما يكون بالمفاوضة أو المقايضة، ولهذا الحوار دلالات عديدة أهمُّها أنَّ الغفران الذي عزم الرَّبّ على منحه لسدوم لم يكن ناتجاً عن رغبة ذاتيَّة، بل هو نتيجة تدخّل طرف خارجي (إبراهيم)، ذلك أنَّ الرَّبّ عزم على تدمير سدوم، حيث أرسل الملاكين قبل الشّروع في الحوار (المقايضة).

كان غفران الرَّبّ لسدوم مشروطاً بوجود عشرة مؤمنين بها على الأقلّ من جهة، ومن جهة أخرى يتبيَّن لنا أنَّ الغفران لم يقتصر على المؤمنين فحسب، وإنَّما تعلّق أيضاً بالأمم الأخرى من غير اليهود. ففي بعض الأسفار غفر الرَّبّ الإله لأعداء شعبه (أهل نينوى)، وللغرباء المُقيمين وسط إسرائيل[40]، ولا بدَّ في هذا

37- القمني (السّيد): الأسطورة والتّراث، سبق ذكره، ص 65.

38- الخروج 14/32.

39- العدد 14/15-16.

40- يونان 10/3، العدد 26/15.

الإطار من التّنبيه على أمر مهمّ يتمثّل في أنَّ الغريب في العهد القديم ثلاثة أصناف: فهو ابن الأمم الأخرى المجاورة لإسرائيل (الكنعانيون والحثيون...)، وهو عابر السّبيل، وهو أيضاً اليهودي من غير أصل عبراني وهو المقصود في هذه المواضع.

بدا الرَّبّ في أسفار العهد القديم - لا سيَّما في المواضع المتعلّقة بالغفران - إلهاً يفضّل العقاب على المغفرة، فالغفران في أغلب المواضع يتحقّق بعد الشّروع في العقاب، وقد يكون الغفران تأجيلاً للعقاب، وقد يكون (الرَّبّ الإله) مضطراً لتقديم الغفران كي لا يُشَكِّكَ الإنسان في قدراته.

إنَّ الميل الواضح إلى العقاب مأتاه أنَّ شريعة بني إسرائيل هي شريعة العدل والقصاص، بما تحيل عليه كلمة القصاص من دلالات مختلفة، منها الانتقام والعقاب، ويبدو الرَّبّ في كثير من المواضع متردّداً بين الغفران والعقاب، وفي أحيان أخرى كان عاجزاً عن التّمييز بين المخطئ والبريء.[41] ولعلّ عدم قدرته على التّمييز بين المخطئ والبريء هو ما دفعه في أحيان كثيرة إلى منح الغفران، ففي حوار إبراهيم مع الرَّبّ يبدي إبراهيم استنكاره لمعاقبة الرَّبّ البريء والأثيم معاً، وبهذا المعنى فإنَّ تصوُّر إبراهيم لقدرة الرَّبّ لا يرقى إلى مستوى التّمييز بين المخطئ والمسيء، ومن ذلك أنَّ ملاكي الرَّبّ أخرجا لوطاً وأهل بيته من قرية سدوم قبل إنزال العقاب بها، فهما عاجزان عن تمييز بيت لوط من بقيَّة البيوت أثناء إنزالهما العقاب بقرية سدوم، وهو أمر يذكّرنا بطلب الرَّبّ من بني إسرائيل وضع الدَّم على عتبات بيوتهم عندما قرَّر معاقبة أهل مصر.[42]

الربُّ الإله في العهد القديم شديد الحذر من الإنسان، وقد سبق أن أعلن عن خوفه منه (الإنسان)[43]، وبسبب هذا الخوف كان قرار الرَّبّ إسقاط الإنسان[44] الذي يمتلك قدرات تجعله منافساً للرَّب الإله، رغم أنَّ الإنسان مخلوق، إلّا أنَّه مخلوق على «صُورَةِ اللهِ».[45]

إنَّ العلاقة بين الإنسان والرَّبّ في العهد القديم من المباحث التي تحتاج إلى المزيد من النَّظر والتّدقيق، رغم ما تميّزت به هذه العلاقة من حبٍّ وتفضيل، فالله «يغفر للمخطئ الذي يعترف بجرمه [...] لأنَّ [الله] لا يريد الموت للمخطئ، ولا يريد أنْ يحتقره، بل يريد أنْ يخلق الإنسان على هيئة جديدة، بتطهيره وبعث البهجة والسّرور في قلبه المُعدم والمُتواضع...».[46]

41- نجد في مواضع أخرى الرّبّ الإله يميز بين المُخطِئ والمُحسن (أخبار الثاني 4/25).

42- الخروج 13/12.

43- التكوين 22/3-24.

44- ذهب أغلب الدّارسين إلى اعتبار سقوط الإنسان في العهد القديم كان بسبب الخطيئة، ولكنَّ الأمر عائد - في تقديرنا - إلى خوف الرّبّ من الإنسان، (التكوين 22/3)، وفي ما يتعلق بهذه المسألة نشير إلى استعمال التّوراة السّامرية فعل "طرد" (التكوين 24/3) بدلاً من فعل "سقط".

45- التكوين 27/1.

46- "Dieu pardonne au pécheur qui s'accuse (...). Loin de vouloir le perdre (…), loin de le mépriser, Il le recrée p - rifiant et comblant de joie son cœur contrit et humilié", Vocabulaire de théologie biblique, op. cit., pp. 900-901.

علاقة العداء المُتمثّل في تمرُّد الإنسان الدّائم على الرَّبّ في أغلب أسفار العهد القديم، وفي تلذّذ الرَّبّ بعذابات الإنسان[47] مظهر لا يمكن إخفاؤه أو تجاهله، فالرَّبّ في هذه الأسفار وجد في ضعف الإنسان وانكساراته دليل ربوبيته، ولعلَّ قيمة الغفران كامنة في كونه إعلاناً صريحاً عن ضعف الإنسان الذي لا يستطيع بضعفه ذلك أنْ يكون غافراً، فالغافر البشري ليس إلّا ذلك الإنسان المُعترف بضعفه. فالرَّبّ الإله لا يمنح سلطة الغفران أو العقاب لأيٍّ كان، بل إنَّه يمنحها للإنسان الذي يعترف بعجزه عن تحقيق خلاصه، وبعجزه عن مُماهاة الرَّبّ الإله أو مُنازعته السّلطة والقدرة.[48]

يبدو الغافر/ الرَّبّ الإله في هيئة واضحة، ففي العدد 14/10-17 يضيق بعصيان بني إسرائيل ويقرّر إبادتهم، إلّا أنَّ شفاعة موسى تَحُولُ دون ذلك، فيقبل الرَّبّ الشّفاعة من أجل اسمه. بيد أنَّ ذلك لا يعني تخلّيه عن فكرة العقاب، فقبول الشّفاعة هو تأجيل للعقاب، ذلك أنَّ الرَّبّ الإله «يَفْتَقِدُ إِثْمَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ وَالأَحْفَادِ حَتَّى الجِيلِ الرَّابِعِ»[49]، فعقابه عقاب مزدوج: آني تمثّل في موت الجواسيس الذين أرسلهم موسى لاستطلاع أمر العدو، فأثاروا الرّعب في بني إسرائيل بأخبارهم، فكانوا سبباً في عزوف بني إسرائيل عن محاربة الأعداء، ومُؤجّل تجلّى في التيه الذي لحق ببني إسرائيل.

لقد تبيَّن لنا في هذا المبحث أنَّ جميع الغافرين يستمدُّون قدرتهم على منح الغفران من مصدر واحد هو الرَّبّ[50]، ويبدو لنا أنَّ الغافر أيّاً كان يفتقد إلى صفة الكمال، فالغافر البشري، ومثال ذلك داود الذي وهب الغفران وسعى أيضاً إلى الحصول عليه (الغفران).[51] ويمكن فهم هذا الأمر ضمن التصوُّر اليهودي الذي اعتبر الإنسان كائناً سلوكه قائم على المراوحة بين الخير والشّرّ، وارتكاب الإثم والمعاصي، وكذلك الملاك الذي يبدو مُتعطّشاً للقتل، ففي أكثر من مرَّة أشهر سيفه في وجه الإنسان[52]، شأنه في ذلك شأن الرَّبّ الذي بيّنا في مقدّمة الباب صفاته الإنسانيَّة، حيث يعتريه النّدم والغضب، وهو يتراجع عن قراراته، ويبدو علمه منقوصاً، وقدراته محدودة. كلُّ هذه الاستنتاجات تجعلنا نتساءل عن هويَّة الغافر، والشّروط التي يجب توفّرها فيه، وعمَّا إذا كان الكمال صفة لا بدَّ من تحلّيه بها؟

47- حزقيال 63/16.

48- مثال موسى وهارون وشاول.

49- الخروج 7/34.

50- إنّ رفض الرّبّ الإله لغفران أخاب ذنوب بنهدد (ملوك الأول 20) أمر يؤكد لنا أنّ الرّبّ الإله المصدر الوحيد للغفران.

51- قارن بين صموئيل الثاني 23/19، وأخبار الأوّل21 /8.

52- العدد22 /23، أخبار الأوّل 16/21.

المبحث الثاني: المغفور له

المتأمّل في المواضع المتعلّقة بالغفران في العهد القديم يتبيّن له وجود صنفين: ذُكر الغفران في الصّنف **الأوّل** في صيغة النفي ممَّا يجعلنا نقرّ بامتناعه واستحالة تحقّقه، وفي هذا الصّنف تغيب ذات المغفور له ويحضر بدلاً منها ذات الموقع به العقاب. أمَّا الصّنف **الثّاني** ففيه إقرار بإمكانيَّة تحقّق الغفران، وفي هذا الصّنف نترصد هويَّة المغفور له الذي اتّخذ في علاقته بالغافر صورتين: كان في **الأولى** منتمياً إلى الرّبّ لأنّه فرد من أفراد شعبه، أمَّا الصورة **الثانية** فكان فيها غير منتمٍ إليه، لأنَّه يعتقد في وجود آلهة أخرى. وهو - المغفور له - ينتمي إلى الجنسين المذكّر والمؤنّث[53]، حيث يغفر الرَّبّ للمرأة أو العذراء التي لم تحقّق نذرها، وهو (المغفور له) فرد وجماعة وقوم ومدينة. وفي تحليلنا لظاهرة المغفور له نعمد إلى ثنائيَّة المُنتمي إلى الرَّبّ وغير المُنتمي إليه، لأنَّ علاقة المغفور لهم - لا سيَّما بنو إسرائيل - بالغافر الرَّبّ الإله كانت علاقة غامضة، فمواقف المغفور له من الرَّبّ الإله راوحت بين الولاء والعصيان، ويمكن اختزال هذه العلاقة كما يلي:

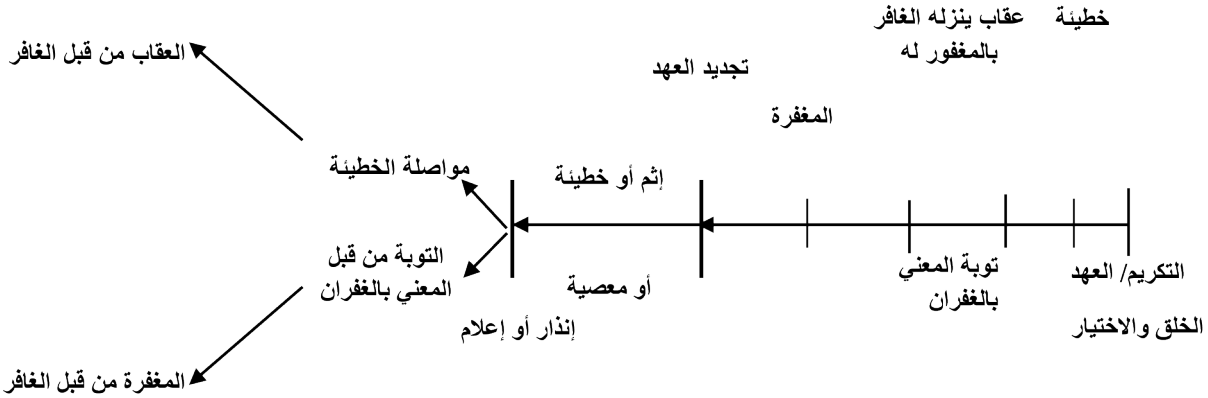

علاقة الإنسان بالرَّبّ الإله

ثمَّة صورتان للمغفور له: تعلقت **الأولى** بالفترة التي تلت إقامة العهد وقبل الإنذار، وتتميز بارتكاب الإنسان للإثم والخطايا، أمَّا **الثّانية** فاتّصلت بالمدَّة الزّمنية الفاصلة بين الإنذار وتحقّق المغفرة أو حلول العقاب، وعن علاقة الإنسان بالخطيئة في المرحلتين يكون موقف الغافر من المغفور له، فإمَّا أنْ يُواصل (المعني بالغفران) ارتكابه للإثم والخطيئة؛ فيكون العقاب مصيره، وإمَّا أنْ يتوب إلى الرب الإله؛ فيحظى بالغفران الجزئي أو الكلّي.

53- العدد 5/30.

يتجلّى الاختلاف في مرحلة ما بعد الإنذار، وإليها يعود الغافر في تحديد موقفه من المعني بالغفران، أمَّا المرحلة **الأولى**، فإنَّ صورة المعني بالغفران فيها ثابتة لا تتغير، إذ يبدو فيها المغفور له أو المعني بالغفران متمرّداً على الرَّبّ رافضاً لجميع تعاليمه وشرائعه مرتكباً للآثام والمعاصي، متغطرساً وناقضاً للعهد، مرتكباً للرّجس، متمرّداً، معتدياً على الحق وعلى الشّرائع والوصايا، عابداً للأوثان[54]، أو هو عدو للرَّبّ الإله وشعبه، مثل النّعمان وأهل نينوى.

المعني بالغفران ليس في جميع الحالات مرتكباً لهذه الآثام، إذ نعثر على فئة لم تقترف أيَّ جرم، مثال ذلك الشّعب في حادثة إحصاء داود لشعب بني إسرائيل، والسبب في ذلك أنَّ الإنسان مخطئ في أصله (الآباء)، وإنْ لم يأت بخطيئة واضحة، أضف إلى ذلك أنَّ الرَّبّ الإله في أحيان كثيرة عجز عن التّمييز بين المُخطئ والبريء، وقد يكون العقاب الشّامل للشّعب ناتجاً عن موقف الرَّبّ من شعبه الذي يعدّ لديه كياناً واحداً لا مجال لتجزئته أو التّمييز بين أفراده، أمَّا في ما يتعلّق بالمرحلة **الثّانية** التي يتمّ فيها تصنيف المعنيين بالغفران إلى صنفين؛ الصّنف **الأوّل** مغفور له والصّنف **الثّاني** مغضوب عليه، فإنَّ لكلّ صنف أفعالاً وتصرفات تناقض أفعال الطّرف الآخر وتصرفاته، فلئن كان الطّرف الأوّل يعمد إلى القطع مع سيرته الأولى، وذلك بطلب الغفران، فإنَّ الطّرف الثّاني يتابع السير في طريق الفساد برفض الإنذارات الرَّبانيَّة، وذلك بتعمّده ارتكاب المزيد من المعاصي والآثام، ومطاردة المنذرين وقتلهم والتّنكيل بهم.[55]

لقد راوح الغافر بين العقاب للصّنف الثّاني والمغفرة للصّنف الأوَّل، على أنَّ الصّنف الأوَّل يخضع لترتيب تفاضلي، إذ نجد جماعة تحظى بالغفران المطلق وجماعة تحظى بالغفران الجزئي، وذلك بحسب درجة المعاصي والآثام والخطايا، وباختلاف درجة التّوبة وهويَّة التائب.

أ- المغفورله الأجنبي

نسعى في هذا المبحث إلى تبيّن ملامح المغفور له الأجنبي، بالاستناد إلى ثلاثة نماذج يتجلّى فيها الغفران: وهي حادثة النّعمان، وحادثة أهل نينوى، وحادثة أهل سدوم، ونضرب صفحاً عن بقية النّماذج، ذلك أنَّنا أشرنا في مواضع سابقة من بحثنا إلى كون حادثة فرعون وحادثة بنهدد وأجاج لا يمكن عدُّهما غفراناً، لأنَّ الرَّبّ لم يباركهما، إذ اعتبرنا الغفران الوارد في حادثة فرعون والذي لم يتحقّق بصورة نهائيَّة تحقيقاً لإرادة الرَّبّ المُتمثّلة في إمهال فرعون، وهي على كلّ حال تحيلنا شأنها شأن بقية الحوادث على صورة المغفور له المُعترف بذنبه، فالرَّبّ الإله أعلن في حادثة سدوم اعتزامه منح أهلها الغفران، وذلك بشروط.

54- إرميا 6/15، المزمور 78/36-37، حزقيال8 /6، دانيال 10/9، التكوين 18/20-21.

55- مثال ذلك ما حدث لموسى وإرميا.

ما يلفت الانتباه أنَّ غفران الرَّبّ آثام أهل سدوم لم يكن ناتجاً عن أعمال صالحة... بل كان سببه شفاعة إبراهيم، وكان الرَّبّ الإله عازماً على وهب الغفران لو توفّر الشّرط، ولكنَّ الملاكين لم يعثرا على عشرة مؤمنين، ولذلك تمَّت معاقبة القوم، فالغفران في هذه الحالة لم يكن تجاوباً مع طلب المغفور له لأنَّ سلوك أهل سدوم لم يتغير ولم يعرف تحوُّلاً نحو الرَّبّ بعد إنذاره لهم المُتمثّل في نصائح لوط، بل ازدادوا غطرسة وإثماً، ومع ذلك فإنَّ الرَّبّ كان على وشك أنْ يغفر لهم، في حين أنَّ الغفران الذي وهبه للنّعمان والمُتمثّل في شفائه من البرص إنَّما كان تجاوباً مع توبته وإقراره بألوهيَّة يهوه وإعراضه عن عبادة رِمُّونَ.[56] أمَّا حادثة أهل نينوى، فهي الأكثر لفتاً للانتباه لأنَّ المغفور له عدو لبني إسرائيل، وعابد للأوثان، فالرَّبّ الإله أرسل لإنذارهم يونان الذي «أبت عليه روحه الوطنيَّة أنْ يبشّر بالخلاص أمَّة وثنيَّة»[57]، على أنَّ أهل نينوى قبلوا دعوة يونان، وأعلنوا توبتهم: «فَلَمَّا رَأَى اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَتَوبـَتَهُمْ عَنْ طُرُقِهِمْ الآثِمَةِ عَدَلَ عَنْ العِقَابِ الذي كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُوقِعَهُ بِهِمْ وَعَفَا عَنْهُمْ»[58]، فهذه الحادثة كشفت «عن محبّته لكلّ الجنس البشري سواء كانوا من بني إسرائيل أو من الأمم».[59]

موقف الرَّبّ من أهل نينوى وسدوم ومن النّعمان الكنعاني يدعونا إلى إعادة النَّظر في مقولات عدّت أساسيَّة في الفكر اللّاهوتي اليهودي مثل العهد والاختيار، فهذه المواقف تدفعنا إلى إعادة قراءة العلاقة الرّابطة بين الرَّبّ والأمم ضمن أسفار العهد القديم على نحو مغاير لما ساد وراج.

صورة المغفور له في هذه الأحداث تراوحت بين المُعترف بالذّنب والتّائب منه والمُضرب عن عبادة الأوثان المُعترف بألوهيَّة يهوه - إذا ما استثنينا قصَّة سدوم - وهي أحداث تشرّع لأمور عديدة، فحادثة أهل نينوى تكشف عن دور الإنسان في كسب الغفران الذي يبدو من خلال هذه الحادثة فعلاً مرهوناً بإرادة المغفور له، فهذه الحادثة تجعلنا نتساءل عن علاقة يهوه ببقيَّة الأمم، وعمَّا إذا كان يهوه العهد القديم إلهاً خاصَّاً ببني إسرائيل دون غيرهم من الأمم؟ وأيّ معنى للاختيار والعهد اللذين خصَّ بهما الرَّب الإله بني إسرائيل مادام الرَّبّ يغفر لغير اليهود؟ وبما أنَّه أقام العهود مع كلّ البشريَّة من خلال آدم ونوح وإبراهيم بوصف الأوَّلين أبوين لكلّ البشريَّة، ذلك أنَّ الطّوفان خلق جديد. أمَّا إبراهيم فهو أب لأمم كثيرة، حيث بارك الرَّبّ نسله يهوداً وعرباً.[60]

56- ملوك الثاني 5/14-18.

57- مقدّمة سفر يونان.

58- يونان 3/10.

59- مقدّمة سفر يونان.

60- نشير إلى أنّ الرب الإله بارك إسماعيل (التكوين 17/18–20). انظر في ما يتّصل بمنزلة إسماعيل في العهد الإلهي لاوت (رينهارد): إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ترجمة غانم هنا، خطوات للنشر، ط 1، دمشق سورية، 2006، ص 82، وفيها نقرأ "كان إسماعيل أيضاً مختوناً، بل كان أوّل من اختُتن. وبحسب كلام الله نفسه هو أيضاً قائم في عهد الوعد الذي لا يُنقض".

ب ـ المغفور له اليهودي

الغفران في العهد القديم غفران يشمل الجماعة (المدن/ الشّعب) والأفراد الأتقياء (الكهنة) والعامَّة الأشرار والقتلة.[61] وما يلفت الانتباه أنَّ المغفور له اليهودي تحصَّل على الغفران بطريقتين: اعتمد المغفور له في **الأولى** على ذاته قصد الحصول على الغفران من خلال التّوبة والاعتراف بالجرم أو التماس الغفران عبر الدّعاء والتّذلل أو إعلان قداسة الرَّبّ والاعتراف بهيبته[62]، وإقرار الإنسان بحقارته بارتدائه المسوح والجلوس في الرَّماد الذي يرمز «للتّوبة [...و] للتّعبير عن حزن الإنسان الذي انسحق تحت الشّقاء»[63]، فالمغفور له عادة ما يكون مرتكباً للإثم عن اضطرار أو عن سهو[64]، أمَّا الطريقة **الثّانية** التي قام عليها الغفران فتمثّلت في الشّفاعة، وهي تُؤدي إلى الغفران الجزئي، إذا ما استثنينا شفاعة يعقوب[65]، والشّفاعة حالة يحافظ فيها المغفور له على صورته الأولى من تمرُّد وعصيان ونكث للعهود.

إنَّ الرَّبّ الإله عندما قدَّم الغفران الجزئي لم يجدّد عهده مع شعبه إلّا بعد أنْ استوفى عقابه له، وقد ارتبط العقاب بفكرتين رئيستين: قوام **الأولى** العدل الإلهي، أمَّا الفكرة **الثّانية** فمدارها على السَّبي والخلاص، ذلك أنَّ العهد القديم اعتبر هدم الهيكل والسَّبي العقاب الذي لا مفرَّ منه نتيجة الخطيئة والإثم[66]، وتمثّل العودة من الأسر وإعادة بناء الهيكل غفراناً وتجديداً للعهد، وعلى هذا النَّحو تمَّ فهم هزائم شعب الرَّبّ أمام الكنعانيين فهماً غائيًّا جعل من التّاريخ هامشاً لأفعال الرَّبّ أو بالأحرى الحيز الذي يُجْرِي فيه الرَّبّ أفعاله ويمارس إرادته ويحقّق غاياته ومقاصده من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الغفران الكلي بالنّسبة إلى المغفور له يتحقّق في نهاية التّاريخ/ نهاية العقوبة.

ج ـ المغفورله الإنسان في المطلق

نعثر في ما يتّصل بهذه المسألة على موضعين اثنين: يتمثّل **الأوَّل** في الآية التّاسعة عشرة من الأصحاح الرّابع والعشرين من سفر «صموئيل الأوَّل»، أمَّا الموضع **الثّاني** فهو الآية الثّالثة من المزمور الثّاني والثّلاثين، ففي الموضع الأوَّل يُعرضُ داود عن قتل شاول رغم قدرته على ذلك، ويثير هذا الموقف في نفس شاول الشّعور بالنّدم، إذ يبدي امتنانه لداود قائلاً: «أَيَعْفُو رَجُلٌ عَنْ عَدُوِّهِ وَيُطْلِقُهُ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ يَقَعَ فِي قَبْضَتِهِ؟ فَلْيُكَافِئْكَ الرَّبُّ جَزَاءَ مَا صَنَعْتَ الْيَومَ مَعِي مِنْ خَيرٍ».[67]

61- عزرا 1/9.

62- المزمور 185/25، المزمور 5/32، المزمور 6/86، المزمور 2/130.

63- معجم اللاهوت الكتابي، سبق ذكره، ص 383.

64- العدد 5/30، اللاويين 17/5-18.

65- وردت هذه الرؤيا في سفر عاموس، الأصحاح السّابع.

66- انظر معجم اللاهوت الكتابي، سبق ذكره، ص 409 وما بعدها.

67- صموئيل الأول 19/24.

إنَّ كلام شاول بيَّن أنَّ الإنسان لا يمنح الغفران ما لم يأخذ بالثّأر أو القصاص (العدل)، ويتجلّى ذلك في أسلوبي التّعجب والدّعاء: «فَلْيُكَافِئْكَ الرَّبُّ جَزَاءَ مَا صَنَعْتَ الْيَومَ مَعِي مِنْ خَيرٍ».

لقد تضمَّنت كلمات شاول معنييْ التّعجب والاستنكار الدّالين على عظمة فعل داود. وتبرز الدّلالة على عظمة الفعل من خلال استخدام شاول حرف الاستفهام «الهمزة» للدّلالة على عظمة الفعل أكثر من الدّلالة على الاستغراب.

على أنَّ سلوك المغفور له (شاول) لا يستمدّ قيمته الأساسيَّة من ذات المغفور له، بل من سلوك الغافر بالأساس، وهو ما يجعلنا نعتقد أنَّ سلوك المغفور له ناتج عن قيمة الغفران (وهب الحياة)، ومن منزلة الغافر وموقفه من المغفور له. إذ تحوَّل شاول من عدو لداود يطالب بدمه (داود)، إلى طالب لغفرانه، وذلك ضمنيًّا من خلال الدّعاء الذي جعل شاول دون داود مرتبة، وفي ذلك تأكيد لعلويَّة الغافر وتدنّي مرتبة المغفور له. أمَّا الموضع **الثّاني**، ففيه قال داود: «طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَتْ آثَامُهُ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُ»[68]، وهو دعاء يتعلّق في ما يبدو بالإنسان/ المطلق، فالغفران نُسب إلى المجهول، رجّحنا في موضع سابق أنَّه الرَّبّ الإله.

يطلب المغفور له الغفران بما هو نعمة وهبة، ولعلَّ هذا الموقف يُفهم إذا ما أرجعنا الآية إلى موضعها من المزمور، فالمزامير صيغت «للتّقرُّب إلى الله في الصَّلاة والتّضرُّع»[69]، ومن أجل ذلك تمَّ تضخيم صورة الرَّب/ الغافر والتّقليل من قيمة المغفور له.

لئن انتهينا في بحثنا في صورة الغافر إلى كونها تتميَّز بالغموض وافتقادها لصفة الكمال (الإنسان) أو أنَّ كمالها غامض الملامح (الرَّبّ الإله)، فإنَّ صورة المغفور له في العهد القديم تبدو واضحة الملامح تتميز بارتكابه للآثام، وبتمرُّده ونكثه للعهود في أغلب الأحيان، وقد تبيَّن لنا أنَّ المغفور له أصناف من جهة علاقته بالرَّبّ، حيث يتمتّع بالغفران بنو إسرائيل وغيرهم من الأمم، وتبيّن لنا أنَّ الغفران يختلف باختلاف المغفور لهم، وذلك بالنّظر في سلوك المغفور له، وفي طبيعة الخطيئة المرتكبة ودرجتها وفي منزلة الغافر ومقاصده أو بالنّظر في منزلة الشّافع والوسيط.

إنَّ المغفور له شخصيَّة سلبيَّة مستسلمة للغافر، أو هي أسيرة التّاريخ لا يتحقّق الغفران بالنّسبة إليها إلّا بعد مضي حقب من الزَّمن يتمُّ فيها استيفاء العقاب، والمغفور له في العهد القديم له مظهران:[70] يتمثّل **الأوَّل** في شخص وارث للخطيئة، وخاضع لإرادة الرَّبّ الإله، أمَّا المظهر **الثّاني** فهو نقيض الأوَّل، إذ تبدو الخطيئة مسألة شخصيَّة ذاتيَّة، وكذلك العقاب يبدو عقاباً شخصيًّا.

68- المزمور 1/32.

69- مقدّمة المزامير.

70- إرميا 29/31–30، 18/32، باروك 4/3–5.

المبحث الثّالث: الشّافع

يتحصَّل المغفور له على الغفران بعد جهد ذاتي حيناً، ودون جهد يُذكر حيناً آخر، وذلك عبر الشّفاعة. وفي هذا المبحث ننظر في هويَّة الشّافع وأصنافه، مع إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف التي تربط الشّافع بالوسيط (Le médiateur)، ولكن قبل المضي في أبعاد هذه المسألة نقف على تعريف موجز وواضح للشّفاعة والشّافع، قصد تبيُّن الفرق القائم بين الشافع والوسيط، فواضعو **قاموس الكتاب المقدَّس** عرَّفوا الشّفاعة بقولهم: «هي التّوسُّط بين شخص وآخر[...] والصَّلاة الشّفاعيَّة يرفعها الإنسان لأجل صديق أو لأجل عدو».[71] أمَّا مؤلّفو **معجم اللّاهوت الكتابي**، فالشافع عندهم هو الذي يتوسَّل «لدى الطّرف الذي يهدّد من أجل الطّرف الذي يقع عليه التّهديد».[72]

هذه التّعريفات وإنْ حدّدت دور الشّافع في التشفّع للصّديق والعدو، فإنَّها لم تشر إلى الشّفاعة باعتبارها فعلاً يقوم به الشّافع قصد التّجاوز عن ذنوب المشفوع له، ولا شكّ في أنَّ الشّفاعة والوساطة تكونان بين طرفين الإنسان/ الإنسان، أو الإنسان/ الرَّبّ الإله، ولكن ما ننبّه عليه أنَّ الشّفاعة ليست هي الوساطة، بل هي صنف من أصناف الوساطة التي لا ينهض فيها المشفوع له بأيّ دور، فالشافع والكاهن وسيطان في العهد القديم، ولكنَّ دور الكاهن لا يتجاوز حدود الوساطة، فهو يشرف على أعمال المغفور له، أمَّا الشافع فإنَّ عمله لا يمثّل تتمَّة لعمل المغفور له، لأنَّ المغفور له لم يقم بأيّ عمل، بل هو يعوّضه كلّيًّا.

أ ـ دور الشّافع في الغفران

الشَّفيع أو الشَّافع ليس مُنتفعاً بالمغفرة ولا مرتكباً للإثم موضوع العقاب ـ شأنه في ذلك شأن الكاهن/ الوسيط ـ فهو يطلب المغفرة لغيره وقد لا يطلبها. والشَّافع لا يشفع إلّا للمؤمنين، حيث شفع موسى مرَّات عديدة لبني إسرائيل، وشفع هارون لقومه، وقد شفع إبراهيم لأبرار سدوم[73]، وشفع أليشاع لبني إسرائيل، وقد قامت أغلب هذه الشَّفاعات على تذكير الرَّبّ بوعوده التي قطعها لبني إسرائيل، وقد قَبِلَ الرَّبّ الشَّفاعة بالنّظر إلى مكانة الشَّافع لديه، وقد مارس الشَّفاعة الأنبياء[74]، على أنَّ العهد القديم نعت هؤلاء الأنبياء/ الشّفعاء بالمخطئين[75]، وكذلك وسم الملائكة بنعوت تقاربها في الدّلالة[76]، فالشَّفاعة لا يشترط فيها عصمة الشَّافع، فموسى الذي تشفَّع لقومه قام بخذلان الرَّبّ الإله والتّمرُّد عليه.[77]

71- قاموس الكتاب المقدَّس، سبق ذكره، ص 512.

72- معجم اللاهوت الكتابي، سبق ذكره، ص 849.

73- التكوين 18/23-33، الخروج 32/11-14، الحكمة 18/22.

74- إرميا 15/11، عاموس 7/1-6.

75- الجامعة 7/20.

76- أيوب 4/18.

77- التثنية 4/21.

إنَّ النظر في التّجربة التّاريخيَّة للعقيدة اليهوديَّة، يجعل من الشَّفاعة أحد العوامل التي تحول دون نزول البلايا بالشَّعب اليهودي رغم خذلانهم الرَّبّ، وقد تمَّ تفسير الحروب والسّبي والأسر بوصفها عقاباً ربّانيَّاً، وكان الشّعب سيبتلى بما هو أعظم لولا شفاعة الشُّفعاء.[78]

وفي ما يتّصل بهذه المسألة نشير إلى أنَّ الشَّفاعة متفاوتة من جهة قبول الرَّبّ لها، فهي مقبولة بصورة كليَّة (شفاعة إليشاع، شفاعة إبراهيم)، وهي مقبولة بصورة جزئيَّة (شفاعة موسى لأخيه وشعبه). ونلحظ أيضاً أنَّ الشَّفيع ليس دائماً ساعياً إلى طلب الغفران لغيره، فعاموس جعل من يعقوب شفيعاً لبني إسرائيل، وكذلك إبراهيم عندما جعل لوطاً شفيعاً أمام الرَّبّ، وفي هذه الحال نصبح أمام ضربين من الشّفعاء: شفعاء يحاورون الرَّبّ (إبراهيم/ عاموس)، وشفعاء من أجلهم تَتِمُّ الشَّفاعة دون أنْ يطلبوا من الرَّبّ الشَّفاعة أو المغفرة لأهلهم مثل لوط ويعقوب، ونعثر في «سفر العدد» على ضرب جديد من الشّفعاء حيث يغفر الرَّبّ للغرباء[79]، لا لشيء إلّا لأنَّهم يُقيمون في وسط شعبه، وعلى هذا النَّحو يصبح الشَّعب الشَّفيع الذي لم يقدّم شفاعته.

ب ـ الكاهن[80]

الكاهن هو الطرف الذي يشرف على الأعمال الكفاريَّة للمغفور له، فيتمّمها، ويسهر على سلامة الطّقوس القربانيَّة، وينحصر دور الكاهن في فضاء الهيكل ـ في ما يتعلّق بالغفران ـ فهو المشرف الرّئيس على تقديم المغفور له الذَّبيحة أو الكفَّارة، والتّكفير يتقاطع مع الشَّفاعة إلّا أنَّ هذا التّقاطع تحوَّل إلى تماهٍ في الكثير من ترجمات **الكتاب المقدَّس**، فـ«بموجب مفهوم التّكفير نفسه، استطاع القدّيس أيرونيموس أنْ يُترجم الفعل العبراني الذي يعني (أتمّ التّكفير) بفعل معناه (يصلّي) أو(يشفع)».[81]

وقد أدَّى هذا الخلط بين الكفَّارة والشَّفاعة إلى إدراج شفاعة موسى[82] ضمن دائرة الكفَّارة، وهو طرح لا مجال لقبوله بأيّ حال من الأحوال، فالدور الرئيس في الشَّفاعة للشَّافع، أمَّا الكفَّارة فهي ترتبط بشخص المُخطِئ السَّاعي للتمتّع بالغفران، ويجب أنْ يكون هذا المُكفّر عن ذنبه ساهياً، وإلّا فإنَّ عمليَّة التّكفير تصبح بلا معنى، فالتّكفير عمليَّة تتميز باحتياجها للاستعداد الدّاخلي لدى من يقدّم الكفّارة، فالكاهن ينهض بدور الضَّامن لسلامة طقوس الكفّارة، فهو «الشّخص المُخصّص لتقديم الذّبائح».[83]

78- مثال ذلك موسى في العدد 14/19-20.

79- العدد 15/26.

80- ما يجب التّنبيه عليه أنَّ الكاهن والكهانة في الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة ليست لها المواصفات نفسها الواردة في العهد القديم، إذ لا علاقة بين الكاهن في التّصوّر العربي والكاهن في التّصوّر اليهودي، فالأوّل على صلة بالجنّ والمستقبل، في حين أنّ للثاني أدواراً اجتماعيَّة وسياسيَّة، وهو الذي يصل بين عالم الإله وعالم البشر(شأن النَّبي).

81- معجم اللاهوت الكتابي، سبق ذكره، ص 207.

82- الخروج 32/30-35.

83- قاموس الكتاب المقدَّس، سبق ذكره، ص 791.

إنَّ الوساطة تشمل الشَّفاعة، ولكنَّها لا تقتصر عليها ولا تروم الوساطة الغفران دائماً. فالوسيط قد يكون ذا مكانة مرموقة لدى الواهب للشَّفاعة، ويمكن أنْ نلاحظ أنَّ الشَّافع في أحيان كثيرة شخص ارتكب إساءات في حقّ الرَّبّ مثل موسى[84] أو هارون. أمَّا الكاهن فإنَّ الآية الثّانية من الأصحاح الرَّابع من «سفر اللّاويين» تشير إلى ارتكابه الجرم هو أيضاً.

يحظى الوسيط (الشَّافع/ الكاهن) بمكانة مرموقة لدى الرَّبّ أو الواهب للغفران، وهو لم يحظَ بهذه المكانة بسبب أفعال أنجزها، بل إنَّ مكانته تلك هي بمنزلة الهبة الإلهيَّة.

الشَّفاعة والكّفارة وسيلتان تؤدّيان إلى الغفران، وهما ملتصقتان بالغفران التصاق السّبب بالنّتيجة ولا سيما الكفّارة، فـ«التّكفير إنْ لم يكن هو الغفران ذاته، لكنَّه مقترن به كلّ الاقتران، لأنَّه ليس هناك غفران إلّا ويسبقه تكفير [...]، وليس هناك تكفير إلّا ويتبعه غفران».[85]

بناء على ذلك نقول إنَّ «الكهنة الذين كتبوا العهد القديم، أصرُّوا على وضعيَّة الكهنة المميزة»[86]، فللكاهن دور رئيس، لا سيَّما عندما طابقت دلالات الغفران دلالات الكفّارة، ففي اللّاهوت اليهودي سُمّي يوم التّكفير/ (Kippour) الذي سُمّي أيضاً ـيوم الغفران.[87]

خاتمة الفصل

كشف الغفران في العهد القديم عن علاقة متذبذبة بين الغافر والمغفور له، وذلك حسب الوضع التّاريخي الحافّ بعمليَّة الغفران الذي بدا غفراناً دنيويَّاً يتجلّى بالأساس في النَّجاة من النّكبات التي مثّلت تدخّلاً من الرَّبّ الإله في التّاريخ لتأكيد ألوهيته وتفرُّده بالرّبوبيَّة أمام الإنسان الذي يتحدَّى الرَّبّ الإله. وبما أنَّ هذا الإنسان لم يعلن ضعفه، فإنَّ الرَّبّ الإله الغافر أو الإنسان الذي يغفر نيابة عن الرَّبّ الإله (الملوك، الأنبياء) يظلُّ ممسكاً عن منح غفرانه للمُخطئ.

وقد بيّنا في متن الفصل أنَّ الغافر ثلاثة أصناف: فهو غافر بشري، وغافر ملائكي[88]، وغافر إلهي، وبدا لنا كذلك أنَّ الأوَّلين يستمدَّان سلطة الغفران من اتّصالهما بالغافر الرَّبّ الإله، وقد وضَّحنا أنَّ الرَّبّ الإله لم

84- العدد 20/22-29.

85- سمعان (عوض): فلسفة الغفران في المسيحيَّة، سبق ذكره، ج 2، ص 116.

86- عبد الهادي (عبد الرّحمن): سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، سينا للنّشر، ط 2، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص 126.

87- يحتفل اليهود بعيد الغفران الأكبر في 10 تشرين الأول (سبتمبر/ أكتوبر). أمَّا عيد الغفران الأصغر، فيكون في آخر يوم من كلّ شهر.

88- بيّنا في مبحث «الغافر في العهد القديم» أنّه بالإمكان ردّ الملائكة إلى الرّبّ الإله، ومن ثمّة يمكن اعتبار الغافر صنفين: صنفاً بشريّاً وصنفاً إلهيّاً، وقصد تبيّن علاقة الملائكة بالرّبّ الإله، انظر: «الغافر في العهد القديم» من البحث.

يمنح سلطة الغفران إلّا للملوك والأنبياء الذين أعلنوا عن ضعفهم أمام قدرة يهوه، وقد تبيَّن لنا أيضاً أنَّ الغافر البشري تحوَّل في مواضع معيّنة إلى مغفور له.

واعتبرنا الغافر في العهد القديم، أيَّاً كان هذا الغافر، يتَّصف بصفة النّقصان علماً وفعلاً، وهو أمر ينطبق أيضاً على المغفور له الذي بدا متنوّع الأصناف والأجناس والأعراق، فهو الجمع والفرد، وهو المؤنّث والمذكّر واليهودي وابن الأمم الأخرى والإنسان في مطلق تجلّياته. وقد وضَّحنا أنَّ غفران يهوه لأبناء الأمم الأخرى لا يدلّ دائماً على حبّ أو تعلّق بهذا الآخر[89]، ولا يعكس رغبة في المساواة بين الآخر واليهودي، فالآخر الذي يتمتّع بغفرانه ليس إلّا ذلك الذي يقرُّ بألوهيَّته (الرَّب الإله) وربوبيته. وقد انتهى بنا النّظر في صورة المغفور له إلى جملة من النّتائج؛ منها أنَّ المغفور له قد يحصل على الغفران لا تكرُّماً وحبَّاً من يهوه، بل لأنَّ يهوه يعجز عن تمييز المُحسن من المُخطئ، وقد يحصل على الغفران بفضل الشَّفاعة التي تُعدّ مسلكاً من مسالك الغفران، على أنَّ الشّفاعة فعل لا ينهض فيه المغفور له بأيّ دور، وهو فعل يؤكّد تأثّر الرَّبّ الإله يهوه بعوامل خارجيَّة، فالشَّافع في العهد القديم ليس الكاهن الذي يشرف على طقوس الكفَّارة التي يأتيها المغفور له قصد الحصول على غفران يهوه.

89- لاحظ أنّ الآخر والغريب اسمان متقاطعان في مستوى الدّلالة في العهد القديم.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر العربيَّة

الكتاب المقدَّس، كتاب الحياة، المؤسَّسة العالميَّة للكتاب المقدَّس، لندن إنجلترا، 1999.

قائمـة المراجع

ـ جعيط (هشام): السّيرة النّبويَّة (الوحي والقرآن والنّبوَّة)، دار الطّليعة، ط 1، بيروت لبنان، 1999.

ـ ابن حزم الأندلسي الظّاهري (أبو محمَّد علي بن أحمد): الفصل في الملل والأهواء والنّحل، تحقيق أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميَّة، ط 1، بيروت لبنان، 1996.

ـ سمعان (عوض): فلسفة الغفران في المسيحيَّة، مكتبة دار نداء الرَّجاء، حمص سورية، (د. ت).

ـ العدوي (مصطفى): «الخطيئة الأولى والتّحليل النّفسي»، مجلّة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت/ باريس، صيف 2002، العدد 122/123.

ـ القمني (السّيد): الأسطورة والتّراث، دار سينا، ط 1، القاهرة مصر، 1992.

ـ لاوت (رينهارد): إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ترجمة غانم هنا، خطوات للنشر والتوزيع، ط 1، دمشق سورية، 2006.

ـ المسيري (عبدالوهّاب): موسوعة اليهود واليهوديَّة والصّهيونيَّة (الموسوعة الموجزة)، دار الشّروق، ط 1، القاهرة، مصر، 2003.

- Derrida (Jacques): Foi et savoir, suivi de Le siècle et le pardon, collection Points, série Essais, Seuil, Paris.

- Schwab (Moïse): Le Talmud de Jérusalem, traduction par Moïse Schwab, G.P. Maisonneuve et Larose, Paris.

- Xavier (Léon-Dufour) [et al.]: Vocabulaire de théologie biblique, Les éditions du Cerf, Paris, 1981.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017